١٣ - مناهج الإصلاح (٤)

١٥/٨/١٤١٩هـ

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحمَدُهُ ونَستَعينُهُ ونَستَغفِرُهُ... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَمَّا كانَ سَبيلُ الإِصلاَحِ هُوَ السَّبيلَ الذِي سلَكَهُ وَقامَ بِهِ أَنبياءُ اللهِ عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كانَ لِزاماً عَلى مَن أَرادَ سُلوكَ هَذا السَّبيلِ أَن يكونَ على بَيِّنَةٍ مِنَ الأَمرِ وبَصيرَةٍ، {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [سورة يوسف: ١٠٨] عَلى بصيرةٍ فِيما يأمُرُ بِهِ وعَلى بَصيرةٍ فِيما يَنهَى عَنهُ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ولا يَكونُ العَمَلُ عَلى بصيرةٍ إِلاَّ إِذا كانَ الدَّاعِيَةُ عَلى عِلمٍ شَرعِيٍّ، بِذلكَ العِلمِ يأمُرُ وَبِهِ يَنهَى، وَبِهِ يَغضَبُ وَبِهِ يَرضَى.

قَالَ الإمامُ الآجُرِّيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَن حامِلِ القُرآن ووَظيفَتِهِ: (فأَوَّلُ ما يَنبَغِي لَهُ: أَن يَستَعمِلَ تَقوى اللهِ فِي السِّرِّ والعَلانِيةِ، بِاستِعمالِ الوَرَعِ فِي مَطعَمِهِ ومَشرَبِهِ، ومَلبَسِهِ ومَسكَنِهِ، بَصيراً بِزَمانِهِ وفَسادِ أَهلِهِ، فَهُو يَحذَرُهُم عَلى دينِهِ، مُقبِلاً عَلى شَأنِهِ، مَهموماً بِإِصلاحِ ما فَسَدَ مِن أَمرِهِ، حافِظاً لِلِسانِهِ مُمَيِّزاً لِكلامِهِ، إِن تَكَلَّمَ: تَكَلَّمَ بِعِلمٍ، وإِذا سَكَتَ سَكَتَ بِعِلمٍ، يَظُنُّ بِعِلمٍ، ويتَكَلَّمُ بِما فِي الإِنسانِ مِن عَيبٍ بِعِلمٍ، ويَسكُتُ عَن حَقيقَةِ ما فِيهِ بِعِلمٍ. إِن مَشَى مَشَى بِعِلمٍ، وإِن قَعَدَ قَعَدَ بِعِلمٍ.

يَتَّبِعُ واجِباتِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ: يَأكُلُ الطَّعامَ بِعِلمٍ، ويَشرَبُ بِعِلمٍ، ويَنامُ بِعِلمٍ، ويُجامِعُ أَهلَهُ بِعِلمٍ، ويَصحَبُ الإِخوانَ بِعِلمٍ، ويَزُورُهُم بِعِلمٍ، ويستَأذِنُ عَلَيهِم بِعِلمٍ، ويُجاوِرُ جارَهُ بِعِلمٍ.

يَصحَبُ المُؤمِنِينَ بِعِلمٍ، ويُجالِسُهُم بِعِلمٍ، يَحزَنُ بِعِلمٍ، ويَبكِي بِعِلمٍ، ويَصبِرُ بِعِلمٍ، ويَتَطَهَّرُ بِعِلمٍ، ويُصَلِّي بِعِلمٍ، ويُزَكِّي بِعِلمٍ، وَيَتَصَدَّقُ بِعِلمٍ، ويَصومُ بِعِلمٍ، ويَحُجُّ بِعِلمٍ، ويُجاهِدُ بِعِلمٍ، ويَكتَسِبُ بِعِلمٍ، ويُنفِقُ ويَنبَسِطُ فِي الأُمورِ بِعِلمٍ...)[1]. انتَهى المُرادُ مِن كَلامِهِ بِتَصرفٍ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَمَّا كانَت كَثيرٌ مِن مَناهِجِ الإِصلاَحِ زاهِدةً فِي العِلمِ الشَّرعِيِّ، بَعيدةً عَن نُورِهِ وبَرَكَتِهِ، داخَلَهَا كَثيرٌ مِنَ الخَلَلِ: خَلَلٌ فِي المُعتَقَدِ، وخَلَلٌ فِي العِباداتِ، وخَلَلٌ فِي طَريقِ الإِصلاَحِ.

قَالَ الإِمامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (البِدْعَةُ إذا دَخَلَت فِي الأَصل سَهُلَت مُداخَلَتُها فِي الفُروعِ)[2].

ولَيتَ الأَمرَ وَقَفَ عِندَ هَذا الحَدِّ، بَل تَرَتَّبَ مِن جَرَّاءِ ذَلِكَ سَلبِياتٌ كَثيرةٌ صارَت عِبئاً عَلى المُصلِحينَ النَّاصِحينَ بِعِلمٍ، كَثُرَ سَوادُ أُولَئِكَ المُتَأَثِّرينَ بِتِلكَ المَناهِجِ مِن عامَّةِ النَّاسِ ومُثَقَّفِيهِم، فَأَصبَحَ الواحِدُ مِنهُم يَنتَقِدُ مَا يُخالِفُ تِلكَ المَناهِجَ دُونَ عِلمٍ أَو بَصيرَةٍ.

---

(1) «أخلاق حملة القرآن» (ص ٧٧).

(2) «الاعتصام» (١/ ٣٥٠).

وَمِنَ الثِمارِ العَفِنَةِ التِي زَرَعَتها تِلكَ المَناهِجُ: تَزهيدُ النَّاسِ فِي العِلمِ الشَّرعِيِّ، حَتَّى وَصَلَ الأَمرُ إِلى تَهميشِ -بَلِ ازدِراءِ- عُلَماءِ الشَّريعَةِ، واتِّهامِهِم بِعَدَمِ مُحاكاةِ الواقِعِ، وعَدَمِ فَهمِ شُمولِيَّةِ الإِسْلامِ، وأنَّ عِلمَهُم مَحصورٌ فِي دائِرَةِ الطَّهارَةِ والصَّلاةِ. وبِئسَ مَا قالُوا.

وَيا سُبحانَ اللهِ! لَقَد حَاكَوا أَئِمَةَ البِدَعِ السَّابِقينَ، وهَكَذا كُلُّ مَن باعَدَ نَفسَهُ عَنِ السُّنَّةِ، كانَت الدَّائِرَةُ عَلَيهِ، وشَابَهَ أُولَئِكَ (أَئِمةَ البِدَعِ) فِي ازدِرائِهِم لأَئِمةِ السُّنَّةِ. ذَكَرَ الإِمامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عَن إِسماعيل بنِ عُلَيَّةَ قَالَ: (حَدَّثَنِي اليَسَعُ قَالَ: تَكَلَّمَ واصِلُ بنُ عَطاءٍ يَوماً -يَعنِي المُعتزِلِيَّ- فَقالَ عَمرو بنُ عُبَيدٍ: أَلاَ تَسمَعونَ؟ ما كَلامُ الحَسَنِ وابنِ سيرينَ عِندَما تَسمَعونَ إِلاَّ خِرقَةَ حَيضٍ مُلقاةٌ.

وَرَوى: أَنَّ زَعيماً مِن زُعَماءِ أَهلِ البِدعَةِ كانَ يُريدُ تَفضيلَ الكَلامِ عَلى الفِقْهِ، فَكانَ يَقولُ: إِنَّ عِلمَ الشَّافِعِيِّ وأَبِي حَنيفَةَ جُملَتُهُ لاَ يَخرُجُ مِن سَراويلِ امرَأَةٍ! ثُمَّ قَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (هَذا كَلامُ هَؤلاءِ الزَّائِغينَ قاتَلَهُمُ اللهُ)[1].

مَعاشِرَ المسلِمينَ:

ومِن سَلبِيَّاتِ تِلكَ المَناهِجِ: التَّعَصُّبُ المَقيتُ لِقادَتِها ومُنَظِّريها، حَتَّى أَصبَحَت عَدالَةُ الشَّخصِ وجَرحُهُ مَرهُونَةً بِمَحَبَّتِهِ لِمُنظِّرِهِم أَو بُغضِهِ. نَعوذُ بِاللهِ مِنَ الهَوى والخُذلانِ.

قَالَ شَيخُ الإِسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (والواجِبُ عَلى كُلِّ مُسلِمٍ يَشهَدُ أَن لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وأَنَّ مُحمَّداً رَسُولُ اللهِ، أَن يَكونَ أَصلُ مَقصَدِهِ تَوحيدَ اللهِ بِعبادَتِهِ

([1]) «منهاج السنة» (٥/ ٢٦٠-٢٦٢).

وحدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ وطاعةَ رَسُولِهِ ﷺ، يَدورُ عَلى دَلِكَ ويَتبَعُهُ أينَ وَجَدَهُ، ويَعلَمُ أَنَّ أَفضَلَ الخَلقِ بَعدَ الأَنبياءِ هُمُ الصَّحابَةُ، فَلا يَنتَصِرُ لِشَخصٍ انتِصاراً عاماً مُطلَقاً إلاَّ لِرَسُول اللهِ ﷺ، وَلاَ لِطائِفةٍ انتِصاراً عاماً مُطلَقاً إلاَّ لِلصَّحابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم أَجمَعينَ؛ فإنَّ الهُدَى يَدورُ مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ حَيثُ دارَ ويدورُ مَعَ أَصحابِهِ حَيثُ دارُوا)[1] انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ومِن سَلبِياتِ تِلكَ المَناهِجِ: أَنَّ أَئِمَّتَها والمُنظِّرينَ لَها عَلى رَغمِ قِلَّةِ بِضاعَتِهِم فِي العِلمِ، بَل عَلى جَهلِ بَعضِهِم، عَلى الرَّغمِ مِن هَذا كُلِّهِ، نَصَّبُوا أنفُسَهُم عُلَماءَ مُجتَهِدِينَ!

وهُنا تَكونُ الكارِثَـةُ، إذا كانَ أَتباعُهُ يَرونَ فِيه المُجتَهِدَ المُطلَقَ، فإنَّا للهِ وإنَّا إلَيهِ راجِعونَ، ويا لَها مِن مُصيبَةٍ، ويَا لِغُربَةِ السُّنَّةِ عِندَ هَؤلاءِ!

أَحدُهُم يُفتِي بِجوازِ التَّوَسُّلِ بِأَصحابِ القُبورِ، وآخَرُ يُحَرِّفُ الكَلِمَ عَن مواضِعِهِ، فَيَخوضُ فِي أَسماءِ اللهِ وصِفاتِهِ بِلا عِلمٍ، وآخَرُ يَزدَرِي بعضَ الصَّحابَةِ، وآخرُ يئِدُ عَقيدَةَ الوَلاءِ والبَراءِ.

وَلَو كـانَ سَهماً واحِداً لاتَّقَيتُـهُ وَلكِنَّهُ سَهـــمٌ وَثانٍ وثالِـــثُ

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

([1]) «منهاج السنة» (٢٦٠-٢٦١).

إِنَّ ضَرَرَ هَؤلاءِ عَلى العامَةِ وغَيرِهِم ضَرَرٌ عَظيمٌ، وعاقِبَتَهُ وخيمةٌ؛ لأَنَّهُم يَتَكلَّمونَ بِاسمِ الغَيرَةِ عَلى الإِسْلامِ، فيغترّ بِهِم المُتَعصِّبُونَ لَهُم والدَّهماءُ مِنَ النَّاسِ.

وَلَمَّا ذَكَرَ الإِمامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى المَواطِنَ التِي يَجوزُ فِيها تَعيينُ الفِرَقِ، قَالَ: (وَالثَّانِي: حَيثُ تَكونُ الفِرقَةُ تَدعُو إِلى ضَلالَتِها، وتُزَيِّنُهَا فِي قُلوبِ العَوامِّ ومَن لا عِلمَ عِندَهُ؛ فَإِنَّ ضَرَرَ هَؤلاءِ عَلى المُسلِمينَ كَضَرَرِ إِبليسَ، وَهُم مِن شَياطِينِ الإِنسِ، فَلا بُدَّ مِنَ التَّصريحِ بِأَنَّهُم مِن أَهلِ البِدعَةِ والضَّلالَةِ. ثُمَّ قَالَ: رَوَى عاصِمٌ الأَحوَلُ قَالَ: جَلَستُ إِلى قَتادَةَ فَذَكَرَ عَمرو بنَ عُبيدٍ، فَوَقَعَ فِيه ونالَ مِنهُ. فَقُلتُ: يا أَبا الخَطَّابِ! أَلاَ أَرى العُلَماءَ يَقَعُ بعضُهُم فِي بعضٍ؟ فَقالَ: يا أَحوَلُ، أَوَلاَ تَدرِي أَنَّ الرَّجُلَ إِذا ابتَدَعَ بِدعَةً، فَيَنبَغِي لَها أَن تُذكَرَ حَتَّى تُحذَرَ؟).

ثُمَّ قَالَ الإِمامُ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فَمِثلُ هَؤلاءِ لا بُدَّ مِن ذِكرِهِم وَالتَّشريدِ بِهِم؛ لأَنَّ ما يَعودُ عَلى المُسلِمينَ مِن ضَرَرِهِم إِذا تُرِكوا أَعظَمُ مِنَ الضَّرَرِ الحاصِلِ بِذِكرِهِم والتَّنفيرِ عَنهُم، إِذا كانَ سَبَبُ تَركِ التَّعيينِ الخَوفَ مِنَ التَّفَرُّقِ...)[1].

ومَعنى كَلامِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: أَنَّ فِي ذِكرِهِم وكَشفِ عَوارِهِم وخَطَئِهِم، مَصلَحَةً لِلمُسلِمينَ يَهونُ ويَصغُرُ عِندَها الضَّرَرُ الحاصِلُ بِذِكرِ أُولَئِكَ وخَطَئِهِم.

فَنَسأَلُ اللهَ تِلكَ أَن يَجعَلَنا مِن أَنصارِ السُّنَّةِ ودُعاتِها فِي كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، ومعَ كُلِّ إِنسانٍ.

---

(1) (3/ 89-90).

إِنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

الخطبة الثانية

الحَمدُ للهِ...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

يا مَن أرادَ الإِصلاَحَ لِنَفسِهِ ومُجتَمَعِهِ، إنَّ سُلوكَ طَريقِ العِلمِ الشَّرعِيِّ هُوَ السَّبيلُ الأوحَدُ بَل وَالأَوجَبُ لِلإِصلاَحِ عَلى بَيِّنَةٍ وبَصيرَةٍ.

فَيا شَبابَ الإِسْلامِ، يا مَن نَذَرَ نَفسَهُ لِلدَّعوَةِ وَالإِصلاَحِ ونَشرِ الخَيرِ، عَلَيكُم بِمَنهَجِ سَلَفِكُمُ الصَّالِحِ، ولا يُهتَدَى إلى مَعرِفَةِ ذَلِكَ إلاَّ بِطَلَبِ العِلمِ ومُجالَسَةِ العُلَماءِ فِي حَلَقاتِهِ، أَو مُدارَسَتِهِ مَعَ أَهلِهِ، أَوِ السُّؤالِ قَبلَ العَمَلِ.

عَلَيكُم بِكَبْحِ العَواطِفِ إذا هاجَت بِلا عِلمٍ، فَتِلكَ العَواطِفُ تَكونُ عَواصِفَ؛ لِعَدَمِ ضَبطِها بِالعِلمِ.

وَلْتَعلَمُوا جَميعاً أَنَّ الكَثرةَ لَيسَت دَليلاً عَلى الخَيرِيَّةِ فِي كُلِّ حالٍ، ولنَحذَر مِن مُخالَفَةِ سِمَةِ أَهلِ العِلمِ والفَضلِ، وَلنَحْرص جَميعاً عَلى أَن نَتَمَثَّلَ السُّنَّةَ فِي جَميعِ شُؤونِنا، فَأَينَ أَثَرُ العِلمِ عَلى مَن كانَت الغِيبَةُ والنَّميمَةُ فاكِهَةَ مَجالِسِهِ؟

وَأَينَ أَثَرُ العِلمِ عَلى مَن جَعَلَ لِسانَهُ مَطِيَّةً لِلشَّائِعاتِ؟ وَأَينَ أَثَرُ العِلمِ عَلى مَن تَلَوَّثَ بِخوارِمِ المُروءَةِ عَلى مَرأىً مِنَ النَّاسِ؟

وأَينَ أَثَرُ العِلمِ عَلى مَن قَتَلَ السَّاعاتِ بِفُضولِ الكَلامِ؟

بَل أَينَ أَثَرُ العِلمِ عَلى مَن تَلَبَّسَ بِبَعضِ المَعاصِي والآثامِ؟ أَينَ أَثَرُ العِلمِ عَلى مَن كانَ فِي عِباداتِهِ الظاهِرَةِ مُخالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ الصَّحيحَةِ؟

فاللهَ نَسأَلُ أَن يَرزُقَنا العِلمَ النَّافِعَ والعَمَلَ الصَّالِحَ. الَّلهُمَّ اجعَلنا قُدوَةً يُقتَدَى بِنا، وَلاَ تَجعَلنا عِبرَةً يُعتَبَرُ مِنَّا.

الَّلهُمَّ إِنَّا نَعوذُ بِكَ أَن نَزِلَّ أو نُزَلَّ، أو نَضِلَّ أَو نُضَلَّ، أَو نَظلِمَ أَو نُظلَمَ، أو نَجهَلَ أو يُجهَلَ عَلَينا.